

قصة

قصيرة

بقلم:

عبد العزيز سليمان الأحيدب

لقد وجد أمين في عيادته التي يعمل فيها آخر النهار ما يشغله عن التفكير بأمة التي سافرت بصحبة شقيقه الأكبر برهان منذ قرابة شهر إلى إحدى دول الخليج، حيث عين برهان مندوباً لإحدى الشركات الهندية التي يملكها ثري مسلم.

أما زوج أمين وأولاده الثلاثة فقد أخذتهم يد المنون في حادث سيارة حينما كانوا متوجهين لزيارة أهلها في قرية قريبة من سورات.

وعلى الرغم من أن أميناً كان وحيداً، إلا أن يومه كان مليئاً، فهو مشغول منذ الصباح الباكر، حيث يعمل في المستشفى الحكومي، ثم يخلد للراحة قبيل صلاة العصر، وبعد صلاة العصر إلى ما بعد صلاة العشاء يعمل في عيادته الخاصة، ومع تزامم الأعمال عليه فهو يجدها مؤنسة له.

منذ أن افتتح الدكتور أمين عيادته الخاصة انقطع تماماً عن الحياة العامة، فلم يعد يجد في وقته متسعاً لسماع الإذاعة، ولا لمطالعة الصحف وقراءة المجلات والدوريات؛ حتى الطبية منها.

صبيحة ذات يوم، وبينما الدكتور أمين كان يهتم بالتوجه صوب المستشفى فاجأه ساعي البريد برسالة، أخذها أمين ووضعها في جيبه ليقرأها فيما بعد، جاء وقت الراحة والغداء، أخذ أمين الرسالة من جيبه، فتحها وبدأ يقرأ ما فيها، علته علامات الحيرة وأمارات التعجب! كانت الرسالة من أمه تطلب منه الحضور إليها حيث تسكن على وجه العجل وبأسرع ما يمكن!! كان لأمين الحق في الحيرة، إذ كان ديدن أمه أن تحدثه هاتفياً؛ وهذه أول رسالة تصله منها، ثم ماذا

الموت الأسود

ها قد أتم أمين العقد الثالث من عمره، ودخل عقده الرابع، وهو كما هو؛ لم تغير السنون شيئاً من طباعه وعاداته، فما زال أمين - كما عرفه أصحابه - متواضعاً لين الجانب؛ وهو الذي نال شهادة الدكتوراه في تخصص الأمراض الصدرية. وما فتى أمين مثلاً يحتذى للشباب المسلم، فقد آتاه الله بسطة في العلم الشرعي والدنيوي، وقد عمر جل أوقاته بعمل الصالحات وبالتزود من الطاعات.

وقد تعجب حين تعلم أن أميناً - الطبيب البارع الذائع الصيت - في بلده الهندية «سورات» مازال يعيش في الحي الذي ولد فيه، وترعرع بين جنباته، ذلك الحي الشعبي، الذي لا يسكنه إلا الفقراء والمعدمون، ولطالما كان الدكتور أمين يجيب عن ذلك قائلاً: «باستطاعتي السكنى في أرقى أحياء المدينة، ومجاورة كبار الساسة وعلية القوم، لكن لن أجد عوضاً عن هذا الحي؛ الذي ترتفع فيه «الله أكبر» مع كل أذان، والذي تكتظ مساجده بالمصلين أوقات الصلاة، ويغشاها الشباب المسلم طلباً للعلم الشرعي على أيدي مشايخ البلدة، فهذا الحي غالبية من يقطنه هم من المسلمين، وهذا ما لن أجده في الأحياء الراقية التي يسكنها الأثرياء وأعيان المدينة من الهندوس، وخليط من النصاري والبوذيين».

كان أمين على وعي بما يقاسيه المسلمون من فقر وفاقة، لذا لم يبخل عليهم بما يستطيع بذله، إذ جعل يوماً من أيام الأسبوع في عيادته التي افتتحها بعد أن حصل على شهادة الدكتوراه لعلاج المسلمين فيه بلا مقابل؛ بل إنه ما اختار تخصص الأمراض الصدرية إلا لما يعلمه من تفشي الأمراض الرئوية - وعلى رأسها السل - بين المسلمين.

حدث لتطلب منه الحضور على عجل؟! لقد أقلت هذه الرسالة أمينا وأشغلت ذهنه، وشئت فكره، وأدخلته في دوامة من الأفكار، بيد أنه تذكر أن هاتف شقيقة الأكبر برهان في الشركة التي يعمل فيها موجود في محفظته، فعزم على قطع الشك باليقين. يمم أمين شطر أقرب مركز للهاتف وأدار القرص وانتظر لحظة، رفع الطرف المقابل السماعه وأجاب باللغة الهندية، ألقى عليه أمين التحية باللغة الهندية، تلثم المتحدث على الجهة الأخرى قليلا ثم رد التحية باللغة الإنجليزية، سألته أمين بالإنجليزية أين برهان مندوب الشركة؟ أجاب الآخر إنه مشغول الآن، اتصل فيما بعد..

أمين: بلغه أن أخاه أمينا قد هاتفه من الهند، وأرجو منك أن تطلب منه الاتصال بي في أسرع وقت، أنهى أمين المكالمه، وخالجه الحيرة من جديد، لماذا أجاب باللغة الهندية أول الأمر ثم تابع الحديث باللغة الإنجليزية؟! أمر غريب، ثم نبذة صوته ليست غريبة علي، إنها تشبه نبذة صوت برهان، هل يكون هو؟! لا.. ليس هو، فلا أعلم سببا يجعله يخفي شخصه.

استمر أمين في تحليل أحداث اليوم، الرسالة.. المكالمه الهاتفية.. وما قد حصل، ما سبب هذا.. وما.. وما انقطع حبل أفكاره إلا حين دخل عليه المكتب زميله في العمل الدكتور جون وألقى عليه التحية وبدأ يتجاذب أطراف الحديث معه.

- أمين، أظن أن وزارة الصحة ستستدعيننا - نحن أطباء الأمراض الصدرية - لنكون ضمن لجنة الوقاية الصحية.

- ما غرض هذه اللجنة يا دكتور جون؟

- يبدو أنك لا تقرأ الجرائد بل ولا تسمع الإذاعة أيضا.

- نعم، أنا كذلك، ولكن ما هي القضية؟

- أنا مستعجل الآن، استمع إلى نشرة أخبار الإذاعة،

وستعرف كل شيء.. كل شيء. ومن حسن الطالع لم يبق

من الوقت على موعد نشرة الأخبار إلا بضع دقائق قضاها

أمين على أحر من الجمر، بدأت نشرة الأخبار، كان الخبر

الرئيس: «الموت الأسود» مرض الطاعون الرئوي يعود من

جديد في مدينة «سورات»، الحكومة أعلنت حالة الطوارئ،

وبدأت العمل من أجل تشكيل لجنة صحية لمعالجة حالات

الطاعون الرئوي، ومتابعة الحالات المشتبه فيها، اللجنة

ستضم أطباء الأمراض الصدرية في سورات، كما سيتم

الاستعانة بأطباء من الولايات الهندية الأخرى...

بدأت أفهم، نعم لقد فهمت كل شيء.. كل شيء، الرسالة..

المكالمه الهاتفية.. كلام الدكتور جون.. ذلك المريض الذي.. نعم لقد فهمت، أرادت أمي أن أتجو بنفسي من هذا المرض القاتل، لذلك لم تحدثني هاتفيا مخافة أن أسألها عن السبب، وهي تعلم أنني سأرفض متى ما علمت السبب. نعم، لقد عرفت ماذا جرى في المكالمه الهاتفية، لقد كان شقيقي برهان.. حتما لقد كان هو.. حدثني بالهندية فلما عرف صوتي تلثم وبدأ يخاطبني بالإنجليزية.. نعم لقد فهمت كلام الدكتور جون.. ولكن ذلك المريض.. لقد أخطأت في حقه.. أخطأت في تشخيص مرضه.. كنت أحسبه أحد أمراض الرئة الشائعة رغم اختلاف الأعراض عنده.. كيف أسامح نفسي على ما اقترفت يداي؟! لكنه أمر طبيعى أن أخطئ، ولم لا أخطئ في التشخيص ونحن لم ندرس الطاعون الرئوي إلا في صفحات

الكتب، ولم يسبق لي أن رأيت حالة طاعون

رئوي رأي العين، وقد أخبرونا أن المرض تم

القضاء عليه نهائيا، ولكن كيف عاد؟! إنها

قدرة الله وقدر الله النافذ.. وكيف لم أعلم

عن عودة الطاعون الرئوي في

مدينتنا «سورات» إلا بعد بضعة

أيام هي بلا شك الفترة التي

استغرقتها

رسالة أمي

لتصلني.

يا لك

من أم

عطوف، أردت

لي النجاة من هذا

المرض المعدي،

ولكن أمام.. أمام

كيف أغادر

سورات؟ وأنا

أعلم قول الرسول

«الطاعون رجز

أرسل على طائفة من بني

إسرائيل، وعلى من كان قبلكم، فإذا

سمعتهم به بارض، فلا تدخلوا عليه،

وإذا وقع بارض وانتتم بها فلا تخرجوا

منها فرارا منه». أمام.. لقد نهانا

رسول الله ﷺ عن الخروج من البلد



إذا ظهر فيها الطاعون.. أملاه.. إن في نهيه ﷺ حملا للنفوس على الثقة بالله، والتوكل عليه، والصبر على أقضيته، والرضى بها... أملاه.. وفي ذلك تحرز من نقل المرض للآخرين.. أملاه.. أنا راض بقدر الله وصابر على حكمه، وسأبذل جهدي في محاربة الطاعون ومنع انتشاره بين سكان بلدي سورات.

هذه الليلة لم تنق عينا أمين للنوم طعما، فقد أكب على ما لديه من الكتب الطبية والتي احتوتها أرفف مكتبته العامرة، وراح يقلب صفحاتها، ويبحث بين طياتها عن مرض الطاعون الرئوي، لكنه لم يجد لمرض الطاعون ذكرا في الكتب الجديدة، فما من أحد إلا وقد أيقن بأن الطاعون قد توارى إلى الأبد، وأصبح من أمراض الماضي، لذا كان لزاما على أمين أن يبحث في ثنايا كتبه أيام الدراسة في كلية الطب، والتي مضى عليها زمن طويل لم تفتح، لقد غطاها الغبار، وطاب للعناكب أن تنسج بيوتها حولها، ومن يسر الله أن وقع بصر أمين، ومن أول وهلة، على كتاب «علم الأمراض»، بحث أمين في الفهرس عن مرض الطاعون الرئوي.. لقد وجدته، فتح الصفحة.. بدأ يقرأ..

.. ومن أعراض مرض الطاعون الرئوي السعال، ويسبق ذلك ظهور دمل تحت الإبط، وأحيانا في اليدين والساقين، وينتشر المرض عن طريق الهواء الملوث بالجراثيم، الذي يخرج المريض أثناء السعال أو التنفس.

أخذ قلب أمين في الخفقان، وبدأ العرق يتصبب من جبينه، إذ قد لاحظ وجود دمل في إبطيه كما أن السعال قد ثقلت وطاته عليه في الآونة الأخيرة.

«هل أصبت بالطاعون الرئوي؟».. يبدو الأمر كذلك، فالأعراض موجودة لدي.. ماذا أفعل؟.. هل أنتظر حتى أتأكد؟.. ولكن إن كنت أصبت بالمرض فعلا فربما أعدي المرضى الذين يراجعونني في العيادة والمستشفى... لا.. لا بد أن أذهب إلى اللجنة التي كونتها وزارة الصحة حتى يقوموا بعمل التحاليل اللازمة، ولكن إن ثبت أمر إصابتي بالطاعون فسيتم الحجر عليّ صحيا، ولن يسمح لأحد بزيارتي.. ولكن لا بد من الفحص ولا مناص منه.

لا يزال هناك متسع من الوقت للتفكير هل أذهب أم لا؟ فالليل طويل، وما أطول الليل على من لم ينم، لم يغمض أمين في تلك الليلة جفن، لقد أمضى ليلته ساهرا وهو يريد أن ينام، متعبا وهو يروم الراحة، قلقا مشوش الأفكار، تلبدت سماء فكره بالغيوم وهو يريد بها مشمسة. قضى أمين

الساعات الطوال على فراشه ليس بالنائم ولا هو يقظان.

- لماذا أنا في حيرة من أمري؟ هكذا بدأ أمين يجادل نفسه، ألست معروفا بين أندادي بالسرعة في اتخاذ القرارات؟ فلماذا، أنا الآن حائر في أمر أحسبه سهلا؟ ولكن هل أفعلها؟ وهل أذهب طائعا مختارا تحملني قدمي إلى السجن؟ لا، ليس سجننا حقيقيا ولكنه أشبه بالسجن، وكأني من عتاة المجرمين وأكابر المفسدين، بل هم أفضل حالا مني!! هم يغيبون في السجن عقابا لهم على جرم اقترفوه، أو ذنب فعلوه، وأنا... وأنا أذهب إلى ما يشبه السجن بلا جرم أو خطيئة. هكذا أمضى أمين ليلته تلك يحاور نفسه وتحاوره نفسه، يأتي بسبب، فتتقضى أقواله بسبب آخر، يغلبها تارة وتغلبه تارات أخرى.

ما إن بزغت أشعة الشمس معلنة طلوع النهار، حتى توجه الدكتور أمين إلى اللجنة الصحية، وقبل ذلك هاتف المستشفى معتذرا عن عدم المجيء للعمل هذا اليوم.

وصل الدكتور أمين إلى اللجنة الصحية وعرف بنفسه، فرحب به مدير اللجنة، ثم خاطبه قائلا: كم أشكرك على مجيئك، فأنت أول الأطباء وصولا، فنحن لم نرسل قائمة الأطباء الذين سيعملون مع المستشفى الذي تعمل فيه إلا البارحة، لكن الدكتور أمين قاطعه قبل أن يتم كلامه: أنا يا سعادة المدير ما جئت هنا بصفتي طبيبا، بل جئت هنا بصفتي مريضا، فعندي أعراض تتوافق مع ما هو معروف من أعراض الطاعون الرئوي؛ وأريد عمل التحاليل وإجراء الفحوصات.

تم عمل ما يلزم، وأمر الدكتور أمين بالمكوث في المحجر الصحي معزولا عن الآخرين، حتى تظهر نتائج الفحوصات.. مرت ساعات والدكتور أمين ينتظر، ويقاسي آلام الانتظار.. لقد ثقلت عليه الساعات، وطالت دقائقها، وجثم وقت الانتظار على صدره، فتقاربت أنفاسه، وازداد خفقان قلبه، وأحس بركبتيه تصطكان، يقعد فلا يطيق القعود، ويقوم حتى يمل القيام.. وبينما هو كذلك إذا به يسمع صرير الباب، ويبصر المدير أماما واقفا.

- دكتور أمين، لقد أثبتت التحاليل إصابتك بمرض الطاعون الرئوي ولا بد من بقاءك هنا.. في المحجر الصحي.

- إنا لله وإنا إليه راجعون، لا حول ولا قوة إلا بالله، اللهم أجرني في مصيبي واخلفني خيرا منها، حضرة المدير لست أمانع في أن أبقي في المحجر الصحي.

- أشكرك يا دكتور أمين على هذا العمل الذي سيسهم في

هذا الإسلام.. وبدأ يحدثه عن الإسلام ونبيه وتعاليمه مرة بعد مرة ولم يمنعه المرض من هذا - حتى وجد الدكتور جون في نفسه رغبة شديدة في اعتناق هذا الدين الذي لم يكن غريباً عليه كل الغربة، وبالفعل لقنه الدكتور أمين الشهادتين واختار له اسم عبدالله، وعلمه ما يجب عليه بعد دخوله الإسلام.

ورغم أن الدكتور عبدالله لم يمض على إسلامه إلا أيام معدودات، فقد تعلم من أمين الكثير والكثير عن الإسلام وأحكامه.

كان أمين يركز على غرس العقيدة الخالصة من الشوائب في نفس عبدالله، حتى إذا اطمأن أمين إلى تشرب عبدالله إكسير التوحيد، عمد إلى تحبيبه العبادة، ثم جعل يربط تصرفاته بروح الإسلام.

دخل عبدالله - كعادته - لينهل من معين الإسلام الصافي على يد شيخه أمين، فوجده شاخص البصر، مرتخي الأطراف، ساكن النفس.. أمين.. أمين أنت متعب؟.. لا إجابة، بادر عبدالله، وهو الطبيب الحاذق، إلى أمين ليفحصه.. وقد فحصه..

- إنها الحقيقة التي كنت أخافها.. لقد مات من جعله الله سبباً في هدايتي.. اغرورقت عينا عبدالله بالدموع..

أراد أن يأخذ منديلاً يجفف به ما جادت به عيناه.. فإذا به يجد ظرفين مكتوب على أحدهما.. رسالة إلى أخي عبدالله..

بدأ عبدالله يقرأ الورقة التي في داخل الظرف.

«أخي عبدالله.. أوصيك بتقوى الله.. ثم استحلفك الله ألا تحزن على فراقى وألا تجزع لموتي، فكل البشر سائرون على هذا الدرب.

أخي عبدالله: أوصيك باثنتين: أوصيك أن تخصصني بصالح الدعاء، وأوصيك أن ترسل الظرف الآخر إلى أمي، وفقاً للعنوان المكتوب على الغلاف.

أخي عبدالله: لقد عرفتكم يا عبدالله منذ سنتين منذ أن التحقت بالمستشفى، وأنت تعلم أننا قلما نلتقي في المستشفى، ومع ذلك فليس هذا بعذر لتقصيري في دعوتك للإسلام من قبل، ولكن أما رأيت كيف أثر فيك موقف النابغ من صميم إسلامي، لذا فأحرص - رعاك الله - كل الحرص أن تجعل من نفسك قدوة صالحة للآخرين.. والله أسأل أن يجمعني بك في جنات عدن عند مليك مقتدر..»

لم ينته عبدالله من قراءة الرسالة حتى تخضلت لحيته بالدموع.

منع العدوى والحد من انتشار المرض بين سكان مدينتنا. مكث أمين في الحجر الصحي في غرفة معزولة ليس معه أحد، ولا يرى فيها أحد إلا الأطباء، وحتى هؤلاء الأطباء الذين لا يراهم إلا مرة أو مرتين في اليوم يدخلون عليه، وقد لثموا أفواههم وأنوفهم بكمامات، مخافة أن ينتقل إليهم المرض، ثم هم يحرسون على أن يؤدوا ما يريدون عمله بأتم السرعة، ثم يخرجون تاركين أميناً وحده بلا أنيس أو جليس، يقاسي آلام الوحدة كما يقاسي آلام المرض.

مضت بضعة أيام بدأ خلالها الطاعون ينخر في جسم أمين، وأخذت صحته تتردى وجسمه يعتل، ولا يزيد مرور الأيام صحة أمين إلا نقصاً. لقد طال عليه المرض حتى مل فراشه ومله فراشه، فهو يود أن ينتهي من هذا الوضع المتأرجح بين الموت والحياة كلياً. بين النوم القصير والارق الطويل. ويوما بعد يوم تزداد صحة أمين سوءاً، ولو أن أحداً من رفاقه الذين فارقهم منذ عشرة أشهر قد وقع بصره عليه لاستحال أن يعرفه إلا بعد التأمل.. إذ لم يبق السقام - على قرب عهده به - من نصارته المألوفة أثراً.. اللهم إلا عينيه بصفتاهما، فلم تنل منهما الأوجاع ولم تحدث في إحائهما المطمئن أي تغير. لكن كل ذلك ما كان ليضعف من إيمان أمين الراسخ وتوكله على الله وتضرعه إليه أن يعجل له أحد الأمرين: إما الموت فيكون شهيداً لما يعلمه من قوله ﷺ: «الطاعون شهادة لكل مسلم» أو الشفاء التام والبرء من هذا المرض.

لم يكن يسمح لأحد بزيارته في هذا الحجر الصحي، لكن شخصاً واحداً استطاع زيارته، وما ذلك إلا لكونه أحد الأطباء العاملين بالحجر، ذلك هو الدكتور جون زميل أمين في المستشفى.

قال جون مخاطباً أمين: لقد ساءني ما أصابك، ولكن ما الذي دفعك لأن تأتي طوعاً إلى هذا الحجر، وإن شئت فسمه السجن الاختياري؟

- إسلامي هو الذي دفعني لعمل كل هذا، فأنا الآن لن أكون ناقلاً للطاعون، ولن أكون سبباً في أن تفقد أسرة بعد مشيئة الله وإرادته - عائلتها بسببي، أو أن يفقد ابن أمه، أو بنت أباه، أو امرأة بعلمها.

- أدينكم بأمركم بهذا حقاً؟!

- نعم، ولولا أن دافع الدين هو الذي يحركني، لما فعلت ما ترى.

- إن ديناً يأمر بهذا لهو دين حق وأمر خير، حدثني عن